قرأت العدد الماضي من الآداب

الأبحاث

بقلم مطاع صفدي

العدد الماضي من الاداب كبير بالحجم ، متنوع في الموضوعات . وهو فضلا عن ذلك ، عدد ممتاز ، مناسبته مؤتمر الادباء الخامس،المنعقد خلال شهر شباط في بغداد .

بضعة ابحاث من المؤتمر نشرها الدكتور سهيل في هذا العدد . وربما تكفي هذه الابحاث لتؤدي مهمة افضل العينات والنماذج عن بقية الابحاث الاخرى .. وهي كثيرة ، لم تتح لاصحابها فرصة القائها في جلسات المؤتمر . وحتى الذين اتيحت لهم هذه الفرصة ، القوا مجتزآت او مختصرات عن موضوعاتهم . الا ان القائمين على المؤتمر قد طبعوا جميع الابحاث والقصائد ، في كراسات مستقلة ، ووزعوها على الادباء وغيرهم .

ولا بد من البداية ان نلاحظ ان طابع السرعة هو الغالب علىكتابة هذه الابحاث . ومن ناحية اخرى ، لم تتحدد الموضوعات منذ فترةطويلة سابقة على انعقاد المؤتمر . وهذا ما جعل المدعوين الى المؤتمر يتقدمون بموضوعاتهم عفويا ، ودون سابق تنسيق . سيما وان هناك دعوات وصلت متاخرة الى اصحابها ، فلم يتح لهم ان يعدوا ابحاثا مطلقا .

ولعلي لا اغالي ان قلت ، بالرغم من فرحي بعناوين المؤتمر الكبيرة (الادب والوحدة ، الادب والاشتراكية ، الادب وفلسطين .. الخ.) ، ان هذه العناوين قد جنت على اصحاب الابحاث ، فاعتقد هؤلاء ان عليهم كتابة (جرد) باسماء شعراء وكتاب ، شاركوا بالقضايا القومية ، عن طريق شعر المناسبات وما يشبهها . ولم يات اي بحث لكي يقيم تجربة الادب الحقيقي ، الادب الانساني المستبطن لقضايا مصيرية ، والمعايش للتجربة الثورية من داخلها .

لقد توقعنا مثلا ان نستمع الى بحوث تعالج تقييما جماليا وانسانيا لادب الالتزام ، لانتاج عشرات من الكتاب والشعراء الملتزمين ، الذين عاشوا هذه العناوين الكبرى طيلة ما يقرب من ربع قرن، حافلبالمحاولات الجريئة ، وتجارب التجديد ، والغوص على اصول المعاناة الادبية والفكرية ، والبحث عن ادوات مبدعة في التعبير ، حتى اصبحت لدينا مدارس ومذاهب متنوعة ضمن ادب الالتزام ..

اقول على الرغم من ان عناوين المؤتمر كانت هي العناوين السياسية المباشرة لادب الالتزام ، فان الباحثين قد مسحوا من الوجود كل تجارب الالتزام . بل لقد مسحوا من حياة الادب العربي الحديث ، اعظم فترة نشاط وابداع وحيوية له .. وهي فترة العشرين من الاعوام الماضية . واذا كان احدهم قد عن له أن يتذكر بعض الاسماء ، فهو يمر بها استعراضا خارجيا . بل ان (الامتياز العظيم) لهذه الابحاث كلها ، انها كانت استعراضا ، ولم تكن ابحاثا ..

وبالتالي فاذا حكم مجتمع بغداد المثقف ، الذي كان يتابع احداث المؤتمر لحظة فلحظة ، اذا حكم على موضوعات المؤتمر بانها كانت اجمالا دون المستوى المطلوب ، وانها مخيبة للامال ، حتى قبل ان توصف بالرجعية او التقدمية ، فان هذا الحكم هو الذي يقرر واقع تلك الابحاث للاسف .

ومن العجيب ان المؤتمر فشل في معالجة قضاياه ، التي انتدب نفسه للتصدي لها ، ولكنه نجح في سلسلة من المقررات ، التي لا يمكن ان تكون نتيجة طبيعية لجو المؤتمر ، ولا لابحاثه ، ولا للمناقشات التي جرت عقب القاء المختصرات خلال ارباع من الساعة ، تطول وتقصر ،حسب تبرعات رئيس الجلسة للمحاضر ..

ولربما كان بين هذه المقررات التقدمية اجمالا ، والشاملة لمختلف قضايا الالتزام ، على الاقل في صورتها الخارجية ، وبين مناقشات (بعض) اللجان صلة واضحة ، اكثر مما بينها وبين الابحاث ، سواء منها التي القيت ، او التي طويت ، او طبعت ولم تقرأ بعد ..

ومن ناحية اخرى ، فانبعض الباحثين اعذارهم المرتبطة غالبا بضيق الوقت ، وكثرة الانشغالات والاهتمامات الاخرى بامور وظائفهم وغيرها ، مما اعاقهم عن الافاضة والدرس .. والابداع !

المهم ان جيل ادب الوحدة ، ادب الثورة ، ادب الاشتراكية ، ادب النكبة ، هذا الجيل كان غائبا ، غاب شعراؤه وكتابه ، وغابت معهم قضاياهم الحقيقية . واصبح لغيرهم ، بل ولمن يناقضهم ويحاربهم، ان يتحدث عن تجاربهم وان يطلق الاحكام . ومع ذلك فقد جاء المقررات (الثورية) تغطية (حكيمة) لكل هذا .. !

وبعد فلنات الان ، على كل حال ،الى مناقشة بعض نماذج الابحاث، التي نشرتها « الاداب » في عددها الماضي . ولنتبع تسلسل نشرها ، مبتدئين بمقال الدكتور مهدي علام وهو :

(الادب وقضية فلسطين)

الدكتور (علام) آثر في موضوعه ان يتجنب التقييم والتحليل لنماذج من ادب فلسطين . وحصر موضوعه في استعراض سريع لبعض هذه النماذج . وقد حاول في مطلع البحث ان يعطي صيغة نظرية ، تقسم الادب الى مفهومين ، خاص وعام . ويقصد بالادب الخاص ، ما يعتمد على الصورة الجميلة والعاطفة المؤثرة للتعبير عن خلجات النفس كالشعر والقصة . والى جانبه ايضا انواع اخرى من الادب الخاص ، وهي الكتابة في مختلف الموضوعات ، من سياسة واجتماع وفلسفة ، تعتمد في اجتذاب قارئها على الحجة والبرهان ، لا على العاطفةوالصورة. ومهما يكن من امر هذه القسمة ، فان الدكتور (علام) يود ان يقول لنا فيما يتعلق بموضوعه ، اننا اذا اردنا ان نبحث عن ادب لفلسطين ، فلا ينبغي ان نقصر نظرنا على الشعر والقصة وحدهما ، بل علينا ان نسعى وراء كتابات سياسية اخرى ، قد نجدها في الخطب والمؤتمرات ، وفي الوثائق والعرائض ..

مثلا هناك « الادب القانوني » ، ونجده في ادب الوثائق الرسمية. ومنها وثيقة ترد على بيان رئيس القضاة البريطاني ، في مؤتمر فلسطين، الذي عقد في لندن سنة (١٩٣٩) . ويسرد علينا الكاتب جزءا من هذه الوثيقة . ولست ادري هل يمكن اعتبار هذه الوثيقة او غيرها ، مما يقترحه علينا الدكتور علام ، ادخل في الادب ، ام في السياسة بمعناها الحرفي ..

ثم يردف الكاتب هذا المثال (الوثائقي) بما يناظره في الشعر عند (عبد الرحيم محمود) ـ وهو شاعر لم اسمع به من قبل ـ ، وعند (ايليا ابو ماضي) . وهكذا يسير الموضوع حسب هذه الخطة ، الى ان يصل الى تقرير حقيقة شاملة ، وهي ان على الباحثين ان يضعوا تحت اسم ادب فلسطين كل ما قيل من ادب بالمعنى الخاص ، وادب بالمعنى العام .

ولعل من ابرز ما عرضه من امثلة ، على الشعر ، بعض مقاطعجميلة او طريفة ، لجورج صيدح ، وابراهيم طوقان،في وصفه للهجرةاليهودية.

لقد كان موضوع الدكتور (علام) افضل صورة نموذجيةعنالابحاث

التي اكتفت بالاستعراض والسرد . واذا كان افضل برهان يمكن ان يسوقه الدكتور علام ، على ضرورة استيعاب الخطب ضمن ادب فلسطين، فهو ما جاء في رسالة جمال عبد الناصر الى الرئيس كنيدي ، اذ قال « لقد اعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاع الاثنان ـ من لا يملك ومن لا يستحق ـ بالقوة والخديعة ، ان يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه ، فيما يملكه وفيما يستحقه . »

ان هذه العبارة الرائعة المكثفة لمعنى النكبة كلها امام الوجدان الانساني ، هي في الواقع ذروة من ذرى الفكر الثوري ، لا يمكن ان ترقى اليه اية وثيقة اخرى .والاحرى ان يسمي الدكتور علام ، الوثائق والدراسات وخطب المؤتمرات السياسية، انها من باب الثقافة العلمية المرتبطة بقضية فلسطين ، اكثر منها بالادب .

(دور الادب في معركة فلسطين)

واما الاديبة الفاضلة ، السيدة سميرة عزام ، فلقد مضت مباشرة نحو طرح مشكلة الادب المعبر عن النكبة كله ، عن ضحالته وانفعاليته الآنية ، عن تسطحه وفوراته العفوية . وبذلك وضعت يدها على احد اعصاب القضية ، النابض بالحيوية وقدرة المعاناة من القرب ومن الداخل.

تقول سميرة : « ان الفرق النوعي في النظرة والاحساس والفكر ، الذي يجب الا تفرضه طبيعة الانفعال بفلسطين كنكبة قائمة ، والانفعال بالقضية كمعركة حتمية ، يفرض علينا الوانا من الاستجابة ، لا تقتصر على اطراح التفجع والندب فحسب ، بل تقتضي حسا شموليا ونظرة استشرافية ، لا بد للفكر والادب من ان يعانيهما ، ليصح اعتبارهما اداة من ادوات المعركة ، اداة تحمل في تضاعيفها ، التنويه بوزنها ، وقيمتها الذاتية . » لم تسع سميرة اذن الى تملق الادب الفلسطيني ، سواء الذي كتب باقلام ابنائه ، او ابناء العروبة ، وانما حاولت مباشرة ان تقيس المسافة المعنوية الرهيبة التي تفصل بين حجم النكبة وبين حجم الادب المعبر عنها .

ولقد قدمت تعليلات مباشرة لهذه المشكلة . حتى كانت احيانا تجد متكآت وشبه اعذار للتقصير والتسطح . ولكنها ، وهي ايضا في عجالة من امرها ، لم تهتم الا بالناحية العملية المباشرة . بمعنى انها كانت منشغلة في امر تدبير الحل ، بعد هذا التقرير العاجل لوضع الادب الفلسطيني . وكذلك اعفت نفسها ، من التدليل التحليلي على صحة احكامها ، من خلال آثار الكتاب انفسهم . ولعلها بذلك ايضا ارادت ان تتقيد بحدود معينة ، فرضتها على نفسها .

ولانها كما قلت مهتمة بالتحريض على الاصلاح ، فانها تسارع الى طرح مقترحات عملية ، على الاديب كيما يصبح الصق بموضوعه ، واشد قدرة على اعطائه حقه من المعاناة والتعبير الاصيل .

ومن ابرز ما تقترحه ، امر لا يمكن ان يتحقق بالارادة والتصميم ، وانما يتطلب نموا حضاريا معينا للانسان العربي ككل ، وليس للاديب فقط ، وهو هذا الشرط : ـ عدم قصر احساس الاديب بالنكبة على مناسبات معينة ، بل تعدو القضية لديه قضية معايشة يومية .

ان سميرة تطالب الاديب بذلك المستوى الرفيع من التمثل الشمولي، المنخلع عن صخب الاحداث ، والمتغلغل في الكيان الذاتي للاديب ..هذا المطلب ، في الواقع ، هو الذي يخلق الآثار الكبرى في الثقافات والحضارات العالمية ، كرواية (الحرب والسلم) لتولستوي مثلا ، وكغيرها من الآثار التي تحاول ان تحيط بمصير امة من خلال احداث فاصلة ، لتقدم تجربة كبرى من تجارب المعاناة والحرية الانسانية . ثم تنطلق سميرة الى مقترحات عملية ، تضعها امام الحكومات والمؤسسات الرسمية ، من اجل تشجيع الثقافة الفلسطينية عامة ، والادب منها بخاصة . وهي كلها مقترحات عملية قابلة للتحقيق ، وجديرة بالتنفيذ. ولعل منظمة التحرير الفلسطينية ، هي الاولى بان تبدأ هذه الخطوات .

(الجذور التاريخية للاشتراكية العربية)

في دراسة مستفيضة حاول الدكتور عبد العزيز الدوري ،ان يكشف عن جذور الاشتراكية العربية في التاريخ العربي والاسلامي . وهو يعلن من بداية هذه الدراسة ، انه يود ان ينفي عن الاشتراكية العربية الاسلامية اية علاقة لها بالماركسية . فان هذه الاشتراكية اقدم اولا من الماركسية ، ومنبثقة ثانيا عن تقاليد الفكر والعقيدة العربية (الاسلام) ، وهي ثالثا ترفض التفسيرات الماركسية لحركة التاريخ العربي ، من جاهليته الى اسلامه وامبراطوريته . وكذلك يعلن الدكتور (الدوري) ان اسم الاشتراكية العربية ، لم يأتها فقط من تطبيقها العربي . فهي لا علاقة لها بالماركسية التي تدعي صلاحيتها لكل زمان ومكان .

ويعرج الدكتور الدوري ، منذ البدء ايضا ، على مناقشة بعض افكار الماركسية ، بشكلها العريض ، ورميها جملة وتفصيلا بعدم صلاحيتها للتطبيق في عالمنا العربي . ومع ذلك فان الكاتب لا ينكر اعتباره لاهمية العامل الاقتصادي ، ولكنه ينكر في الوقت نفسه ان يكون عاملا وحيدا..

ثم ينطلق ليبرهن على جذور الاشتراكية العربية في هذه الدعوة المستمرة للعدالة ، التي رافقت الفتوحات الاسلامية ، وتاريخ الحركات الاخرى ، التي كانت تقوم احيانا لدواع اقتصادية ، وكيف كان يعالجها الحكم العربي والاسلامي .

ان الدكتور الدوري يصر على انه الى جانب المحركات الاقتصادية لبعض الحركات الدينية ، فان للافكار الدينية اثرها ايضا . وكذلك كان للشعوبية اثر كبير على قضايا الصراع . وهي في الاصل حركة تنافس قومي بين العرب والعجم ، ولا دخل للغنى والفقر فيها .

وفي الوقت نفسه يتحدث عن حركة القرامطة ، وثورة الزنج ، والعيارين والشطار باعتبارها كانت ثورات طبقية الى حد ما . وكذلك يصف نمو التجارة وظهور طبقة للمستغلين واصحاب الثروات الضخمة، ويقلل في الوقت نفسه من اهمية انتشار النظام الاقطاعي عبر الممالك الاسلامية ..

والواقع ان القارىء لهذا الموضوع قد تلتبس عليه بعض مقاصد الكاتب ، وان كان يشعر احيانا بانه يوافقه على اراء كثيرة ، وقد يقف احيانا متسائلا مدققا حول اراء اخرى .

منها مثلا :

● ان مبدأ العدالة الذي قامت عليه عقيدة المجتمع العربي الاسلامي القديم بقي مرتبطا بالشروط الحضارية المتحولة انذاك . ولذلك فان المذاهب الاسلامية والمدارس الفكرية المختلفة التي نشأت ابان استقرار الحضارة العربية عبرت عن اتجاهات مختلفة ، بعضها يميل نحو اليمين وبعضها يميل نحو اليسار ، وبعضها الاخر ، يتجاوز القضية الاجتماعية الى التناحر الشعوبي .

● فماذا يدل ذلك ، ان لم يدل على امكانيات تعدد وجهات النظر ، والانطلاق من صراعات موضوعية نحو تفسيرات تأخذ طابعا دينيا صحيحا او محرفا .

● وبالتالي فان مبدأ العدالة هذا يحتاج مع تحول الظروف الاجتماعية، ومع تقدم العلم ، الى تحديد واضح لمضمونه يناسب نوع الصراعات الاجتماعية ، التي تبرزه وتؤكد عليه . فمن المسلم به ان مختلف العقائد السماوية ، والفلسفات والدعوات الاصلاحية ، منذ ايام الحضارات الراقية القديمة ، من كونفوشيوس الى بوذا الى افلاطون حتى القرن التاسع عشر ، كانت كلها تطلعات نحو العدالة والمساواة ، وكذلك كانت الثورات السياسية والاجتماعية . ولكن ذلك لا يعفينا من محاولة دراسة الاشتراكية الحديثة . ولا يعفينا كذلك من السعي الى تحليل اوضاع مجتمعنا العربي على ضوء النظريات العلمية ، واكتشاف ما يلائمه من الحلول الاشتراكية الثورية ، شرط الا نطمس فيه خصوصية ظروفه ولا ان نبالغ فيها الى درجة نفي امكانية الاستفادة من علم الاشتراكية، كما يمكن ان نفيد من مختلف العلوم الاخرى .

● ولست اعتقد اننا مثلا لدفع بعض الاراء ، مضطرون للانغلاق والتعصب . فلا حاجة ابدا الى ترديد معزوفة (الافكار المستوردة) ان

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ

القصائد

بقلم الدكتور احمد كمال زكي

***

مهرجان الشعر في بغداد

لن اتحدث عن هذا المهرجان ، لانني لم اشهده ، ولم تقع لدي كل قصائد الشعر التي القيت فيه . ولكن ما نشر من هذه القصائد حتى الان ـ وفي عدد الاداب الماضي منها اثنتان ـ يكشف عن حقيقة خطيرة هي ان شعر المهرجان لا يمكن ان يمثل واقع الشعر العربي المعاصر كله .

فأغلب القصائد كان عن بغداد الف ليلة وليلة ، لا بغداد العباسيين العظام ، وكان الشاعر اذا اراد ان يخرج عن هذه الدائرة وقع في شرك القوالب الجاهزة التي فرضتها مواقفنا في الدعوة الى تمكين الحس العربي في قومية تستهدف وحدة شاملة .

ومن ناحية اخرى كان كل ما همر ـ المتمهرجون من الشعر العمودي باستثناء قصيدة لنازك الملائكة وما انشده شعراء ليبيا . ولست ادري بماذا نصف هذا الصنيع وشعراء الشباب اليوم لايصدرون الا عن الشعر المرسل ؟ اهو موقف من المهيمنين على المهرجان ضد القصيدة المرسلة ام عدول من جانب الشباب عن انطلاقهم الى اسر القافية ورويها ؟ وهل يعني هذا ان المهرجانات لا يناسبها الا الشعر العمودي الذي تستدر قافيته التصفيق ؟

مجرد ظاهرة ارصدها ، ثم اقفز الى قصيدة احمد اللغماني ، وهي مما القي في المهرجان بعنوان « بغداد » . ولا شك انها اصابت ما شاء صاحبها من التوفيق بخاصة اذا كان رائع الانشاد ، ولقد جاءت من النوع الرصين على الرغم من وقوعها في «المتقارب» الذي يزل بصاحبه ويدفعه الى سطحية العبارات المكدرة المبتذلة . وهذا وحده دليل على تمكن الشاعر التونسي من اداته ، وفي الوقت نفسه رد مباشر على من يقول ان « البحر » يفرض المستوى الذي ترتفع اليه القصيدة او تنخفض عنه .

ومع ذلك فكلمة الحق تقتضينا ان نعترف بأن الشاعر ابتعد كل البعد عن بغداد الجواري المغنيات والعبيد وليالي الرشيد ، وقصد الى « الفكرة » التي يعيشها الشعب العربي حتى تتحقق ، اعني الوحدة العربية مع اقرار بذنب ضياع فلسطين ، وهو شيء اصبح عارا في جبين العرب !

ولقد مهد لهذه الفكرة بتمهيدين موفقين : اولهما ابيات في الحكمة على النسق العربي المعروف ، اي يلخص التجربة دون ان يعرضها ، فيقول فيما يقول :

وايمان تونس ان المطامح
تدرك بالجهد لا بالتمني
مصير ابن آدم رهن يديه
وما الحظ الا اباطيل ميت

والتمهيد الثاني مناقشة لقضية الحتمية او الجبرية التي يرفضها على نحو ما يقرر انه ـ ولعله في هذا كأي عربي ـ لا يأخذ بعقيدة العجز لان مشيئة الله ان يختار ويحمل تبعات اختياره :

وحملني تبعات اختياري
فخيرني احد المربين
مشيئته ان اخط مصيري
وابني حظي بالساعدين

القصيدة حلوة من غير شك ، فلنتركها الى قصيدة اخرى من قصائد المهرجان ايضا بعنوان « الى زوجتي » وقد القاها رجب مفتاح الماجري الليبي ، وهي تحمل بشاشة الشعر المرسل وبساطته ، وان كنت لا اعلم تماما بماذا ظفر صاحبها عندما انشدها وفي المهرجان من اخذ بفحولة احمد اللغماني ومن لف لفه !

وفي رأيي أن هذه القصيدة اذا لم تكن شيئا في المهرجان فيكفيها انها كانت مما نبه على سمات الشعر المرسل ، وان كنت اعيب على صاحبها نثريته التي طبعت المقطع الاول منها وجزءا من المقطع الثاني ، أي من اول قوله « عاتبتني » الى قوله « فاثرتني » ، على اني اذا كنت محكما لاخترت قصيدة اللغماني بلا تردد !

لماذا

قصيدة لفدوى طوقان ، في المقطعين الاول والثاني منها ارادت ان تفلسف الموت فلم تستطع .. ارادت ان تسبغ عليه لونا ، فظل بلا لون الا هذا اللون الذي رسبته فواجع الاحداث وعرفته بصيرتنا بلا معالم ولا تخوم ! ومن هنا كان لا بد لها وهي تحاول ان تحدد معناه ـ وقد صرحت هي بذلك ـ ان تضع نفسها ازاء هذه القوة التي لا مهرب منها ، او تضع الميت الذي كان لحنا جهيرا حيث يوضع عادة فتستطعم مرارة الخيبة والاخفاق .

ومن خلال النظرة الكلاسيكية يبدو خاطفا كالحلم او هاويا كالنجم، او لعل الشمس خلبته عشقا ، فمضى اليها يشق دروب الذرى واستقر في اهداب صبح مبين على المرتقى !

في هذه المعاني الكلاسيكية وقفت فدوى طوقان .. نابضة بثقل الفاجعة التي اسلمتها الى ضرب من المقاومة ، ولكن دون ان تندب او تنوح ! واكبر الظن ان هذه عندها هي الفلسفة الحقيقية . فعلى الرغم من انها خضعت تقريبا لنفس المؤثرات التي خضعت لها زميلات سبقنها الى الرثاء ، فانها ظلت نمطا متفردا ، وتفردها هذا هو الذي اضفى على افكار الموت المتداولة في المقطعين المذكورين ما يشبه الجدة :

اقول لقلبي لقد عاش يهوى
عناق الحياة على المرتقى
وتخلبه الشمس عشقا فيمضى
يشق اليها دروب الذرى
أكان يطيق احتمال دبيب المساء
فيلقى المصير بنار خبت ...
وبروح ذوت في هشيم السنين
على المرتقى عانق الموت ما بين اهداب صبح مبين

ويبدو ذلك المقطع ـ وهو الثاني ـ جميلا موفقا ، الا ان فدوى كانت اكثر توفيقا في المقطع الثالث حيث بلورت فيه احساسها بتجربة الموت ـ على نحو فلسفي ـ في اوسع المجالات . وهي في قمة اعتدادها بأن اخاها الراحل جزء طليق يدور مع الفلك الدائر ، تنكسر انكسار الانسان الذي لا يؤمن او لا يستطيع ان يؤمن بهذا المنطق الخلاب!

انها في قمة غرورها لا تجد مناصا من ان تستسلم الى احساس المرء بطغيان الفناء . فقد يملك هذا المرء ان يقول ويقول ، ولكنه لا يملك ان يقبل الفناء تتويجا لوجود ، ولا يستطيع ان يتصور ان في الزوال فيض امتلاء ! ومن هنا كانت فدوى اكثر من رائعة واكثر من صادقة ، وقالت بعد ان توجت عمر اخيها الراحل بما شاءت ان تتوجه به:

اقول .. ولكن قلبي في غمرات اساه العميق الصموت
يعود فيقرع جدران صدري
يسائل في حيرة في قنوط :
لماذا يموت ؟
لماذا يموت ؟

احسب ان احدا من شعراء العرب لم يهيأ له ان يصور المصير الزائل هذا التصوير ، وعلى هذا النحو من البساطة كما فعلت فدوى طوقان !

وجه البراءة

هذه القصيدة لملك عبد العزيز تقف حيث وقفت فدوى طوقان ، ولكن من زاوية اخرى سداها موقفنا ـ نحن ابناء الجمهورية العربية المتحدة ـ من قضية اليمن ، ولحمتها الفداء بمن لا ترى من الشهيد الا

وجه طفل يعيد ببراءته كرامة الانسان .

ولكن بالاضافة الى سذاجة الفكرة حتى ليسأل بعضنا : اهذا فقط ما يؤلمها في فقد الفقيد ؟ فاننا نفتقد ابعاد تجربة واضحة على الرغم من انها تصر على تحديد مغزى ما تهف اليه في موضعين او ثلاثة . ولقد نراها تزجي الصور جنبا الى جنب مع شعارات تدور حول البيع والشراء والدولار واراقة ماء الوجه والثمن والمغنم ـ ويبدو انها مشغولة بقضية مالية ـ فلا نملك الا ان نثني على براعتها الفنية ، الا اننا لا نجد مفرا من ان نقول بعد الثناء : ثم ماذا ؟

ان التصدي للموت مهما تكن صورته في قصيدة ملك ، ومع تسليمنا بانه كان حقيقة ذات ملامح خاصة ، فهو لم يصنع شعرا يرتفع عن مستوى المقررات الجامدة . ومن هنا بدا عند الشاعرة شيئا مجردا لا يضفي على كفاحات الانسان ـ التي اصرت ملك على اثباتها ـ ضوءا كاشفا .

ويضعف من النغمة التي شدتنا الى مثلها قصيدة فدوى السابقة شيئان : الاول نثرية تظهر في مثل قولها :

ما زال في قلوبنا براءة البذل براءة الحنان
بغير بيع او شراء
بغير دولار بغير كبرياء
تذل ان اعطت
تذلنا
تريق ماء وجهنا
تدفعنا بالخزي بالهوان !

والثاني ما يمكن ان نسميه معاظلة ، او ما يدخل تحت ما خوفت منه نازك الملائكة في مقالها الذي نشرته الاداب في عددها الماضي بعنوان « الادب والغزو الفكري » . واعني تهالك الاداء اللغوي تهالكا مصدره المعربات ، وآية هذا التهالك اخر مقطع في القصيدة .

مارس الحزين

اذا كانت ملك عبد العزيز لم تصدر عن عمق عاطفي في مجال الموت فان كمال نشأت في « مارس الحزين » يفعل دون ان يصر على اخضاع اطراف تجربته للقياس المنطقي ، ومن ثم لا يمكن ان نتجاهل كل العناصر التلقائية في قصيدته ، بل لا يمكن الا ان نقدر هذا الضرب من التحمس الرومانسي الذي جرى واقعيو العصر على رفضه او على اخذه بريب .

والحقيقة اننا نحتاج فعلا الى من يبصرنا بخطأ هذا الكبح غير الطبيعي للرومانسية ، ولا سيما عندما تكون لقاء على « الطبيعة » التي تتفتح عن وجود يريد ان يزدهر ويخنقه الصقيع . ولقد نكون صور « مارس » التقليدية المأخوذة من شعراء لبنان والمهجر مبررا لحاجتنا تلك ، حتى يقف المرج الاخضر والفجر الخجول والنسيم الرفاف والسنونو الذي يزق ازاء ليل الثأر ورعد الموت وخطى الكفاح وغير ذلك مما ملته اسماعنا . الا انها عندما تصبح ـ على ما جاءت في قصيدة كمال ـ اساسا لمعنى يضطرب فيه جيلنا ، جيل القلق والخوف والانتظار ، تكبر حاجتنا اليها ويسهل معها التخلي عن الصناعة اللفظية التي تختلط فيها الاوصاف الحلوة بالانماط المتداولة .

ان كمال نشأت في « مارس الحزين » يعبر ببساطة ، ويعزف عن الصور « العامة » التي يتضمنها عادة كل شعر يتعمد صاحبه الا يجعله مفهوما ، ويبلغ اقصى تجليه عندما يقول :

يا مارس الحزين
كم من مساء حلق القمر
وكم عيون للبشر
تطالعه
لكنه ما مل صحبة السنين
ورحلة البزوغ والافول
لانه ـ في قيده ـ يجول
وليس كالبشر

هذا على الرغم من انه يجعل بيت القصيد في المقطع الاخير ، وذلك عندما يقول :

انا هنا
نعيش ما نعيش
ومرحبا ان جئت بالصقيع
ونحن في الربيع !

بطاقة بريد

للشاعر حسن النجمي الذي لا يمل ان يرتل في محراب فلسطين آلم كلم ، ولعله في مقدمة فناينا الذين يملكون الكثير من الاحساس بالفقد والضياع . ولكن هذا الاحساس الذي يعبر عنه النجمي من صعيد الكارثة وفي « بطاقة بريد » يتحدث عن شوق يرتكز على الحقيقة التي تقرر في بساطة وصدق انه لا بد من العودة .

والغربة وفلسطين بالنسبة له ليستا موضوعا تجمد في انماط مجحناها لتكرارها وتوقفها عند السطح ، وانما هي عملية معقدة يجد النجمي نفسه اسير اسبابها ، وهي تضرب في الاعماق وتدب مع الدم في الاعراق .

وهنا .. في بطاقة بريد يشير الى انه ما من الفاظ يمكن ان تعبر عن معاناته الضارية ، فقد ابهظته الايام التي طال مرورها عليه وهو مبعد عن بساتينه وحقله وثماره ، فصمت وتكلمت جراحه :

يا هوى غلف بالحزن مداري
يا هوى يدرك اني لفتي الصمت ...
جراحاتي حواري

وهذه الفكرة هي عصب القصيدة في الحقيقة اذا جعلنا الشوق يخطط لتجربته ، والثأر ـ وهو قاسم مشترك في كل شعره تقريبا ـ او الاستعداد للثأر يستحيل حافزا ابدا او قوة تدفق الى ان يعمل والى ان يتصور انه الفادي او بروميثيوس المارد الذي قبض النار الالهية من الشمس من اجل البشر فصار ـ كما قرر اسخيلوس ـ فريسة نسر ضار راح ينهش كبده ثلاثين الف عام .

سوف تقضي العمر جريا في البرارى
شاعرا يصرعه الحلم ...
سدى ، قابض نار !

ان هذه القصيدة في تكنيكها القديم الجديد ـ فهي تلتزم القافية ذات الروي الموحد مع التحرر من النظام البيتي الخليلي ـ موفقة من غير شك .

انتصار ايوب :

هي للشاعر شاذل طاقة يعود بها الى الراحل بدر شاكر السياب ليؤكد انتصاره برغم الموت كما انتصر ايوب ـ وقد علق السياب حالته

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

في البحرين
تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »
من
الشركة العربية للوكالات والتوزيع
شارع المتنبي

القصص

بقلم الدكتور وليم الميري

***

في عدد الاداب الماضي ثلاث قصص قصيرة ومسرحية مفرطة في القصر هي اقرب الى القصة القصيرة حجما . واذا كان لا بد من اثارة قضية هنا فالقضية التي تثار تتصل بالمسرح ، لا لان القصة القصيرة أثارت من القضايا ما فيه الكفاية ، فالفن لا تنتهي قضاياه ، ولكن لان المسرحية التي نشرت في العدد الماضي ، وهي مسرحية « لا سفر في الليل » تثير قضية لا اقول جديدة ، ولكن لا بد من اثارتها من جديد ، ونعني بها التأثر بمسرح العبث او مسرح اللامعقول . فالمسرحية صيغت صياغة عبثية ، بل انها تحتذي مسرحية « في انتظار جودو » لصموئيل بيكيت ، كما نرى ذلك مفصلا عند التعرض لهذه المسرحية . ونحن نتساءل هنا : هل مسرح اللامعقول من السهولة بحيث يغري بالتقليد ؟

ان مسرح اللامعقول ليس سهلا ، فهو يسير على اصول وان بدا انه يخالف كل اصول ، فعناصر الدراما متوافرة في مسرح أئمة العبثيين، والجديد الذي اتى به مسرح العبث يتصل باستخدام اللغة وعدم الخضوع للسياق الزمني المنطقي ، مما يزيد هذا المسرح صعوبة ربما بالنسبة للمسرح التقليدي الذي يمكن السيطرة على تكتيكه بالدراسة والممارسة.

والسؤال الثاني : هل مسرح اللامعقول شكل لا بد منه للتعبير عن مضمون معين ؟ ونحن اميل الى القول بأن مسرح العبث او الشكل المسرحي الجديد الذي اتى به مسرح العبث ربما كان اصلح الاشكال للتعبير عن مضمون معين ، ولكن هذا المضمون هو مضمون اوروبا الغربية ، فمسرحيات العبث التي ظهرت في اوروبا الغربية هي رموز للوجود المتمزق والقلق الفكري والمذهبي الذي يعيشه الانسان الاوروبي. فمسرح العبث ، اذن ، شكل يفرضه مضمون معين ، فهل يعاني العالم العربي حالة تشبه حالة اوروبا الغربية ، حالة انهيار القيم والافكار ؟ هل يعاني الانسان العربي تمزقا في وجوده ، وقلقا على مصيره ؟ هل نجد شيئا من هذا بحيث يستوجب التعبير عنه الاخذ بشكل مرض جديد وهو مسرح العبث ؟ ربما يقول قائل او يعترض معترض ان تيار اللامعقول قد جرف حتى كبار الكتاب المسرحيين ذوي القدم الراسخة في الفن المسرحي وفي مقدمتهم كاتبنا المسرحي الاول توفيق الحكيم ، ولكن لعل هؤلاء قد نسوا ان الحكيم عندما كتب مسرحياته اللامعقولة واولها « يا طالع الشجرة » قد فعل هذا ليمارس تجربة جديدة في الفن المسرحي ، فالحكيم استاذ له ان يمارس التجارب الفنية الجديدة في اقتدار ووعي وحرية ، فهو لم يتخذ هذا الشكل الجديد مذهبا له وهجر من اجله المسرح التقليدي بل نراه يعود الى الكتابة المسرحية التقليدية بعد ان جرب قلمه في مسرحيات اللامعقول ونجح فيها .

وبعد فما نريد ان نقوله هنا هو ضرورة التنبه الى خطر مسايرة الاتجاهات الجديدة سواء في المسرح او في غير المسرح ، وان نكف عن استيراد الاشكال الفنية والادبية التي قد تكون ضرورية للتعبير عن مضمون غربي ولكنها لا تكون ضرورية للتعبير عن مضمون عربي .

***

وحتى لا نكسر السياق نرى ان نبدأ بمناقشة مسرحية هذا العدد وهي مسرحية « لا سفر في الليل » بقلم احمد الباقري ، وهي مسرحية في فصل واحد او منظر واحد . ولا ادري لماذا تحضر هذه المسرحية في ذهني مسرحية صمويل بيكيت « في انتظار جودو » «Waiting For Godot» ففي مسرحية بيكيت اثنان هما «استراجون» و « فلاديمير » ينتظران المدعو « جودو » وفي مسرحية الباقري القصيرة جدا اثنان هما « يوسف » و « ابراهيم » ينتظران القطار ، « واستراجون » و « فلاديمير » متلازمان او قل ملتصقان كما هو حال « يوسف » و « ابراهيم » ، « وجودو » لا يأتي ، والقطار ، ايضا ، لا يأتي ، وتحت شخص ثالث في كلتا المسرحيتين يأتي او يحاول ان يأتي باخبار عن جودو او عن القطار ، هو في مسرحية بيكيت الصبي وفي مسرحية الباقري الرجل الثالث ذو البدلة الزرقاء ، والصبي والرجل الثالث قد يبعثان الامل في نفوس المنتظرين ولكنهما قد يبعثان على اليأس .

ابراهيم : ان هذه الليلة تبدو لي كالابد ، ليس ثمة اثقل من الانتظار .

الرجل (مخاطبا ابراهيم) : ولكن هنالك الامل ..

وفي اخر المسرحية يقول ابراهيم (مخاطبا الرجل) : وماذا علمت ؟

الرجل (بكآبة) : لقد اتصلت بنا محطة بعيدة تليفونيا ،تذكر انه قد حدث عطب اخر في هذه المحطة الاخرى .

واذا كان مضمون المسرحيتين واحدا ، فالشكل واحد بالضرورة ، ويشيع في مسرحية الباقري تعابير ومفاهيم لا نفتقدها في مسرحيات اللامعقول .

ابراهيم : ربما ابدلوا مواعيده ، فانهم يبدلون مواعيد القطارات كما يغيرون ملابسهم الداخلية ، فربما وصل وانطلق قبل مجيئنا ، وقد يكون امامنا الان دون ان نراه ، وقد لا نكون في المحطة ابدا (يفرك عينيه) ترى هل نحن في حلم ؟ اننا نعيش في كابوس دائم . حسنا ، اصفعني .

يوسف (يصفعه بقوة) : انك الان صاح .

... ...

ابراهيم : هل انت سعيد ؟

يوسف : لا .

ابراهيم : نعم

يوسف : لا .

ابراهيم : لا .

يوسف : نعم .

ابراهيم : ينبغي الا تيأس وكن رجلا .

يوسف : ينبغي الا تيأس وكن رجلا .

ابراهيم : الموتى هم الخاسرون .

يوسف : الاحياء هم الرابحون ! عاش المنطق ! انه يجعلك ثري وانت لا تملك ثمن عشاء .

***

فماذا فعل كاتب المسرحية « لا سفر في الليل » ؟ انه لم يفعل اكثر من تعريب « في انتظار جودو » مع اختزالها اختزالا شديدا .. انه لم يكتف باستعارة الشكل الجديد في كتابة المسرحية ، بل استعار مضمونها ايضا ، او قل انه استعار الشكل ففرض المضمون نفسه عليه، او استعار المضمون ففرض الشكل نفسه عليه للتلازم الشديد بين الشكل والمضمون في مسرح اللامعقول ، وهذا ما جعلنا ننبه الى خطر التأثر بالاتجاهات الجديدة دون وعي او حذر ، فنحن ، في الحقيقة ، لا نتأثر بالاشكال وحسب ، ولكننا نتأثر بالافكار فكأننا ننقل لغة جديدة ، غريبة عنا . وقد نترفق بكاتب المسرحية العربية فنقول : لعله يجرب شيئا جديدا شكلا ومضمونا وهو لا يقصد اكثر من التجربة والمران ... لعله !

***

ونأتي الى قصص العدد ، وهي ثلاث اولاها قصة « عذاب المعرفة » بقلم علي بدور ، واذا كان الفن الحقيقي يلمح ولا يصرح ، ويهمس ولا يصيح ، ويعرض لاعمق الافكار ولا يعرضها عرضا فلسفيا في جمل ذات صياغة منطقية فان قصة « عذاب المعرفة » تعرض لفكرة جعلت عنوانها واضح الدلالة عليها بحيث يغني عن القصة نفسها ، ولم يكتف الكاتب بالعنوان بل عبر عن هذه الفكرة في عبارات صريحة واضحة :

« ان المعرفة على تنوعها تورث التعب والمسؤولية » و « .. وحامد الان لانه كان يعرف .. يتعذب . من قال انه غير مهتم ؟ انه في اعماقه

يحترق .. » و « لعل الانسان وهو يسعد باقتراح المعرفة ينسى عذابها .. ان الثمن الذي يدفعه الانسان لقاء معرفته بالاخرين ، هو معيار الحياة الحقيقية التي تقاس بعمق واصالة » .

فماذا بقي للقصة ان تقوله باحداثها وشخصياتها ورمزية حوارها؟ والقصة بسيطة محكمة وكان يمكن ان تؤدي المعنى الذي اراده الكاتب منها ، فحامد ، بطل القصة ، يقف ينتظر الباص ويجيء زوجان في شهر العسل ، الزوجة مشغولة بزوجها ، والاثنان مشغولان عما حولهما ، ويكتشف حامد ان الزوجة هي سميرة التي تعرفت عليه بالهاتف ووجد فيها فتاة احلامه فاذا بالمعرفة تعذبه وحده لانه يعرف .

وبالرغم مما عاب القصة من التصريح بفكرتها في عنوانها وما فيها من عبارات دالة فقد وفق الكاتب في ان يمضي بالقصة من بدايتها حتى اكتشف حامد انه يعرف فاذا به يتعذب في تكتيك بارع يعتمد على دقة التحليل والوصف والانتقال من زمان الى زمان دون ان يشعر القارىء بهذا الانتقال .. ومن اوصافه وتحليلاته البارعة قوله : « كانت الزوجة توشك ان تحيط زوجها بنظراتها وتخفيه عن الاخرين » . وان عابه ان يكرر هذا الوصف في اكثر من موضع ، فهو مرة يقول : « وهي تخفيه وتشده وتجذبه اليها بعنف، تلاطفه وتشعره بوجودها كله من خلال نظراتها التي كانت تريد ان تحتويه بكليته فلا تظهر منه شيئا » . ومرة ثالثة يقول : « لا تزال سميرة تخفي زوجها في نظرات عينيها » . ويلجأ الكاتب الى المنولوج الداخلي لان حامد هو محور القصة ، وكل ما يقع حوله انما يأخذ دلالته من واقع اعماقه ، وان كان الكاتب لا يسرف في المنولوج الداخلي .

***

اما القصة الثانية في العدد الماضي فهي قصة « ناس في الليل » بقلم ضياء الشرقاوي. وهذه القصة من قصص التراجم على حد تعبير الاستاذ عبد الرحمن فهمي في العدد الماضي ايضا ، يكتب امثالها كل القصاصين في مطلع حياتهم . ولا اعلم هل الاستاذ ضياء الشرقاوي في مطلع حياته او قد تجاوز مطلع العمر وان لم يكن قد تجاوز هذه المرحلة في كتابة القصة .. نعم بيومي حارس سيارات في احد ميادين القاهرة يعيش هو واسرته على القروش التي يدفعها له اصحاب السيارات الذين يتركون سياراتهم في حراسته ، والرجل يجعل لكل باب من ابواب الانفاق جيبا يضع فيه شيئا من الرزق الذي يأتيه ، وهو مشغول بجيب سميحة ابنته التي تنتظر الدواء وثمنه جنيه وفي الجيب اقل من نصف جنيه ، وفي الميدان ثلاث سيارات ، اثنتان صغيرتان والثالثة فارهة يلوح عليها العز والثراء ، والمتاعب كلها تأتيه من صاحب هذه السيارة الكبيرة الفارهة ، فالرجل المسكين ينام ، ويترك نفسه لاحلام اليقظة وينتبه على صوت يعنفه بشدة ويتهمه بسرقة فوانيس السيارة ولا يتركه الا بعد ان يأخذ ما في جيب سميحة!وتعطف فتاة الليل التي كانت بصحبة صاحب السيارة فتسقط في يده ورقة نقدية بخمسين قرشا اي بزيادة عما كان في جيب سميحة وهكذا تنتهي القصة نهاية « سنتمنتالية » .

ولا شك عندي ان الكاتب قد وصل الى مرحلة لا بأس بها من النضج في الاداء ، فهو يعالج قصته هذه بشكل يتواءم مع مضمونها ، ويزاوج بين الحلم والواقع ، ويحسن استخدام الحوار وهو يديره في لغة عربية سليمة ولكن في سلامة تجعله اقرب الى لغة الحوار الدارج ، وتبرد براعة الكاتب في ادارة الحوار بهذا الاسلوب عندما يستخدم المنولوج الداخلي ، فيديره بلغة عربية سليمة ولكن دون ان تفسد اللغة انتقالات المنولوج الداخلي ، وتقطع هذا الحوار ..

« .. كل شيء غرق في النوم .. من هنا يا سيدي .. نعم .. على طول .. الشارع القادم .. في اخره .. في ماذا تفكر ايها الرجل؟ .. ان ابنتي سميحة مريضة منذ شهر .. انها بنت حلوة ستحبها ان رأيتها .. الم تعرضها على طبيب ؟.. نعم .. نعم يا سيدي والله ،.. وكتب لها الدواء .. ان الدواء غال يا سيدي .. ثمنه جنيه .. جنيه كامل .. »

وبهذا الحوار نجح الكاتب في ان يجعلنا نعيش مع سميحة فسميحة هي بطلة القصة ، هي الشخصية الاولى في القصة ، وقد نجح الكاتب في هذا دون ان يلجأ الى اللهجة الخطابية والى عبارات الوعظ التي تزخر بها عادة امثال هذه القصة من قصص التراجم .

***

« وزورق من دم » ليوسف شرورو هي القصة الثالثة والاخيرة في هذا العدد ، وهي في مستوى دونه القصتان الاخريان ، وهي قصة طويلة ، ولا شك ان الاستاذ يوسف شرورو قصاص راسخ القدم في فن القصة ، وهو يعالج قصته هذه مستخدما السرد التقليدي والمونولوج الداخلي والاسلوب التأثيري .. فالكاتب يوهمك بأن يلتزم التكتيك التقليدي فيستهل قصته : « وكان وجهه العصبي » .. ويمضي مع هذا السرد حتى ينتهي من مقابلة الطبيب الذي سعى اليه ليخلصه من الجنين الذي انتفخت به بطن حبيبته الاميرة السابقة . وزورق الدم هو هذا الجنين الذي يلقى به في قنوات لندن ومجاريها . والملخص يفسد القصة لانها ليست قصة حوادث بالرغم مما فيها من سرد ، انها قصة احداث داخلية ، في داخل كمال الغريب في لندن الذي يشعر انه فقد مقومات الحياة لانه فقد الجذور التي تضرب في باطن ارضه وبلده ، ولهذا فهو لا يريد ان يحتفظ بالجنين ويقول :

« لا اود ان اراه صبيا يمشي ، لا ارغب في ان يكون لي ولد ، لا املك روافد حياة لامد بها الحياة » .

وهو يربط بينه وبين هذا الجنين الذي وضع جرثومته ، فاذا كان قد فقد مقومات الحياة لانه غريب وضائع في مدينة كالغول تبتلع كل شيء ، واذا كان يريد لهذا الجنين الموت ، فهو يريده لنفسه ايضا .

هذه مأساة الغريب ، والقصة تكشف عن اكثر من مأساة ، فهناك مأساة الاميرة السابقة ، الاب طرد امها والام طردت ابنتها ، والابنة تسعى الى ان تنسى هذا كله في احضان هذا الغريب وبمتعة جنسية متصلة : « انت من جعلني اعيش الشبق الجنسي المتواصل ، تسلخ ظهري ، اريدك كل ليلة ، وكل ساعة .. » .. ثم مأساة الوحدة التي تلتهم القيم وتزري بالفضيلة .. « لن تطردني صاحبة البيت لانني اعيش معك ، هي تتمنى ان تجد احدا ليقاسمها نصف سريرها العريض ، وتجري القشعريرة الشبقة في كتفيها ليلا .. » .. ومأساة الحضارة المادية التي تجعل الطبيب يخالف القانون وهو يعلم انه سوف يسجن في يوم ما .. لان له زوجة تعشق رؤية الوريقات الزرقاء والخضراء ..

هذه القصة ليست قصة كمال واميرته السابقة وصاحبة البيت التي تنتظر من يقاسمها نصف سريرها العريض والطبيب المزيف الذي تعشق زوجته رؤية الوريقات الزرقاء والخضراء ، انها قصة المدينة الكبيرة ، قصة الغربة والضياع .. والقصة تصور هذا كله بالشخصيات الممزقة ، والاسلوب الحاد ، والالفاظ الدالة ، وبهذا الايقاع الذي يشيع في القصة وتغطيه هذه الجملة التي تتكرر : « كف عن الركض فلن تكون هناك بساتين ثلج ، ولن تتدفق عيون مياه » . ان الكاتب يلقي بهذه الجملة في سياق القصة محدثة ايقاعا زمنيا ونفسيا عميقا .. ثم يجيء الديالوج الداخلي من غير هذيان ، فيكمل الصورة او القطعة الموسيقية الحادة التي ارادها الكاتب تعبيرا عن ضياعه او غربته او مأساته او مأساة الاميرة ، او مأساة المدينة العظيمة ، او مأساة الحضارة الانسانية ..

القاهرة — وليم الميري

الابحـــاث

– تتمة المنشور على الصفحة ٨ –

كنا نريد ان ندافع عن حضارتنا وثقافتنا التراثية . والواقع ان أفضل دفاع هو ان نبدع حضارة جديدة تخاطب العصر بلغته ، لا ان نتفنن في محاولات عقيمة للاعتصام بمعاقل مما وراء الزمن .

ولست احسب ان الدكتور الدوري يمكن ان يلتقي بمجمل ارائه مع الذين يدعون الى الانكفاء والاكتفاء بما صنعه الاجداد .

وكذلك فان الالحاح على مبدأ العدالة كمثل اعلى ، يسمح لمختلف القوى الاجتماعية ، من اقصى اليمين والرجعية الى اقصى اليسار والتقدمية ، يسمح لهم بان يعطوه التفسير الذي يريدونه ، وبذلك يفقدون الاشتراكية نجوعها الثوري ، ويجردونها من اي تجسيد موضوعي.

فان هناك قضايا يومية مباشرة كالاستعمار والتخلف ، الاقطاع والرأسمالية ، التجزئة والطائفية ، كلها تتحدى فينا اصالتنا الثورية ، وايجابيتنا في وضع الحلول الواضحة المحددة ..

ومن خلال معاركنا الثورية المتوالية،اتضحت لنا المضامين الاجتماعية للقومية العربية . وامام هذا الوضوح كان على الثوريين العرب ان يختاروا احد طريقين : اما طريق الاصلاح المبني على مبدأ العدالة ، بدون تحديد المضمون الاجتماعي ، او طريق الثورة المبني على مبدأ العدالة ، المحدد بمضمون اشتراكي علمي . وهذا الطريق هو الذي تسير عليه اليوم اكبر ثورة رائدة للعالم العربي ، في القاهرة .

وكنت اتمنى لو ان الدكتور الدوري حاول ان يعطي لموضوعه بعض التفاصيل فلا يأتي بهذا الشكل الاقرب الى تلخيص لبعض معالم التاريخ العربي . فان التفصيل والتحديد ، ضمن منهج فكري واضح ، هو الذي يبلور وجهة نظر الكاتب تماما ، ويبعدها عن هذا التأرجح المجرد بين مختلف المواقف .

ولست اشك ان التاريخ العربي والاسلامي ، يحتاج الى اعادة نظر ، الى قراءة ثورية ان صح التعبير ، الى البحث عن جوانب المحافظة والاستغلال الاجتماعي والسياسي تحت يافطات عقائدية مختلفة ، والى البحث عن معاني الثورات والمذاهب الفكرية ، وعن الخلفيات الثورية التي تقف وراءها ، في بنية المجتمع المادية نفسها .

وبالتالي علينا ان نستخدم مختلف الادوات العلمية من اجل فهم هذا التاريخ ، ثم فهم المرحلة الحاضرة شبه المنقطعة انقطاعا حضاريا وزمنيا عن عصور الحضارة العربية القديمة .

وعلينا بالمقابل ان نتصدى لمختلف المذاهب الاشتراكية ، وفي طليعتها الماركسية نفسها ، ونناقشها ونحاورها فيما يترسب عنها من حقائق ، وفيما تخطته التجربة الاشتراكية العالمية نفسها .. وذلك بدلا من ان نرفضها رفض الجاهل المتعصب . وننكفيء على انفسنا ، وندعي اننا نملك الحقيقة المطلقة منذ الازل والى الابد .. !

اننا نعيش في اعظم عصر لتلاقي الافكار وتواجهها وتفاعلها . ولا مهرب لنا من ان نقدم ما لدينا ، ونفهم ما لدى الاخر ، والا فقدنا حضورنا من العصر وفي العالم ..

واذا كان يصح في ناحية ان نبحث عن جذور لاشتراكيتنا في تقاليدنا الروحية والثقافية والقديمة ، فان الاصح ايضا هو ان نبحث عما يميز تجربتنا الثورية الحاضرة .. هذه بالذات . حتى ولو لم نجد جذورا لها في تاريخنا ، ولم نسع الى اصطناع جذور اخرى ..

ان البحث عن الجذور يعادل ، ان لم يفق ، البحث عن البذور الجديدة في الارض الجديدة .. ومن اجل ربيع جديد !

فحين لا نجد الجذور علينا ان نبذر ونزرع من جديد ، وتلك هي الدعوة الاعمق في صميم ثوريتنا الحضارية اليوم ..

لا نريد ان نكرر ، ولا ان نستمر مجرد استمرار ، ولكننا نريد ان نخلق من جديد ، ولو من عدم ، ومن خلال هذا العصر ، وبادواته وثقافته وحقائقه ..

هذا هو التاريخ كحياة وحضور ، وليس التاريخ كمتحف وغياب وسكون !

● واخيرا لعل الدكتور (الدوري) قد وقف عند حدود عرض بعض اوجه الصراع في التاريخ . وكان هذا هو نصف الموضوع ، او المدخل الى الموضوع المنتظر ، وهو السؤال : ما موقف الدكتور الدوري المحدد تماما، على ضوء نظراته تلك في التاريخ ، من الاشتراكية العربية ، وما هو مضمونها الاجتماعي الثوري في رأيه .. هل هي مجرد دعوة للعدالة ، وكيف ، وماذا تعني هذه العدالة عمليا . ؟

(التراث والمجتمع الجديد)

ان الدكتور ناصر الاسد صور معركة الجديد والقديم ، عبر عصور الحضارة العربية وبين موقف المجددين المزيفين ، وهم الشعوبيون ، والمجددين الاصلاء . وكان مع التراث ضد دعوات الشعوبيين ، ومع المجددين الاصلاء ضد المحافظين الجامدين . وعرج على المشكلة في الوقت الحاضر فدعا الى احياء التراث دون ان يقف ذلك عثرة في وجه التجديد. ودعا كذلك الى التجديد شرط ان يكون ذلك نابعا عن روح الامة وظروفها. وهو في نهاية المقال ، لا يكتم استياءه من المقلدين السذج للثقافات الاخرى . ولكنه في هذه الاسطر القليلة ، جاوز اعتداله العلمي ،وكشف عن شبه غضب من الثقافة الغربية ككل .. عندما قال : « او انه شيء (اي التجديد) لا تعرفه الامة ، ولا تحس به ، ولا تتذوقه ، ولا تحتاج اليه . شيء غريب عنها ، دخيل عليها ، منقطع الصلة بها وباصولها وتراثها . » .

كأني بالاخ الكاتب اذن يود ، من خلال صيغة التساؤل هذه ، ان يثبت هذه التهم كلها على محاولات التجديد المعاصرة . وسواء اراد ذلك ام لم يرد ، فان هذه الاوصاف، هي الكليشات المعهودة التي يرمي بها عادة المتأدبون الرجعيون ، حركات التحرر والثورة في الشعر والقصة ..

ودون ان ندخل في نقاش الان مع اصحاب هذه التهم نريد ان نسأل سؤالا واحدا فقط :

ترى كيف تتاح للامم ان تستخدم صناعات الامم الاخرى ، دون ان تتاح لها التفاعل مع افكارها ؟ وهل هناك ثقافة حقيقية في تاريخ الحضارة الانسانية كلها ، ممتنعة على التمثل والفهم من قبل اي مثقف في اي عصر ؟

فالامة التي لا تتذوق ثقافة اليونان ، ولا تفهم ثقافة الغرب المعاصرة لا بد ان تكون عاجزة حتى عن فهم ثقافتها التاريخية هذه ..

وبدلا من هذا التعميم الغريب ، الا نقول انه حتى داخل الحضارة الغربية ، هناك من يقبل فكرة او نظرية وهناك من يرفضها ، والا ما رأينا في سلسلة الفلسفات المثالية الكبرى والعقلية ، وما يقابلها من الفلسفات الواقعية والمادية .. وما رأينا في ملايين الكتب التي الفت لعرض نظريات ودحض نظريات اخرى ؟

فالماركسية لا يدين الغرب كله بها والا اصبح شيوعيا . وكذلك الوجودية وكذلك المثالية ..

فلماذا اذن نحرم على العربي ان يشارك في هذا المعترك الثقافي ، اليس له الحق في الاطلاع والدرس ، القبول والرفض ؟ ..

الواقع ان الازمة هي ان هناك من يجهل ثقافة الغرب جملة وتفصيلا ويعاني تجاهها مركبات نفسية معقدة ، وليست ثقافية ..

وكذلك هناك من يجهل التراث العربي ، وربما دفعه هذا الى رفضه ايضا دون وعي وتمثل ..

هذا اذا نحينا من هذا التصنيف جماعات الاستغلال السياسي والطبقي ، الذين يهمهم مثلا اخفاء رجعيتهم او شعوبيتهم ، اما بادعاءات تراثية مغلقة ، او بادعاءات تفرنج سطحي .

اما فيما يتعلق باراء الدكتور (اسد) فانه يلخصها بهذه الخاتمة العامة الصحيحة : « فالتطور في الادب ينبع من تطور المجتمع ، وحين يكون كذلك يكون في الوقت نفسه عاملا من عوامل تطوير هذا المجتمع تطويرا سليما دون ان يفصله عن جذوره ، ويقطعه عن اصوله ، ويعريه عن اصالته .. » .

ولكن كيف ، وما هي الطريقة ؟!

(الادب والغزو الفكري)

ربما كانت محاضرة السيدة نازك الملائكة اوضح وثيقة عن مجمل الموقف الادبي ، بل الفكري ، بل القومي ، الذي اخذ يتبلور وراءه تيار جديد في بعض العواصم العربية ، في المشرق ، وذلك اثر انهيار التجارب اليسارية السياسية ، وما خلفته وراءها من خيبة وردة عنيفة ..

لقد كانت نازك الملائكة ، كما نعلم ، واحدة من الصف الادبي الرائد ، سواء بما استحدثته من جديد في الشعر ، وبما ضمنته من تجارب جديدة اصيلة ، وسواء بموقفها القومي ، ومعاناتها العميقة لتحولات العمل الثوري في العراق .

ولعل نازك كانت من اكثر الادباء تحسسا بنكبة العروبيين في العراق خلال المد الشيوعي المزيف . وربما جعلها ذلك تراجع كثيرا من منطلقاتها الفكرية حتى اصبحت اخيرا في موقع غريب بالنسبة لموقعها الاول . وقد يكون هناك اسباب اخرى خاصة ، لا ندري بها ..

ولكن اوساط الشباب المحيطين بالمؤتمر في بغداد ، كانوا جميعا متفقين على ان نازك اصبح لها موقف شبه معاكس تماما ، لموقفها السابق الذي عبرت عنه باروع الشعر قبل سنوات .

اقول هذا كمدخل ضروري من اجل ان نفهم هذه الاراء الغريبة التي فاجأت بها المثقفين في المؤتمر وخارجه .. من خلال المحاضرة المنشورة في العدد الماضي من الاداب ..

واذا كان الدكتور سهيل قد كفانا مؤونة مناقشة معظم هذه الاراء بالكلمة التي القاها مباشرة اثناء المؤتمر .. فان هناك جوانب كثيرة اخرى تحتاج الى المناقشة في محاضرة (نازك) ..

بل ربما كانت التجربة (الجديدة) التي صدرت عنها هذه الاراء هي التي تحتاج الى مزيد من الكشف والحوار ..

وليقيني ان هذه التجربة لا تنفرد بها نازك اليوم من بين صفوف الادباء والمثقفين ، خاصة في العراق ، فان محاولة تحليلها ، والكشف عن مصادرها النفسية وارتكاساتها الاجتماعية بل والسياسية ، هي من اهم واجبات المفكرين العرب اليوم ..

ان نازك الملائكة في محاضرتها تلك ، تصدر عن موقف الرفض الكامل للادب العربي المعاصر . وذلك لان هذا الادب ، في رأيها ، هو حصيلة الغزو الفكري ، الذي تعرض له العرب . وهو اخطر بكثير من الغزو العسكري المادي . لان هذا الاخير هو احتلال للارض ، بينما الثاني هو احتلال للفكر والروح .

ونازك تتهم الادب المعاصر بالاخلاق ، باللادين ، باللاعربية .. بالمادية واللاروحية ..

بينما الفكر العربي ، قبل هذا الغزو ، يمثل الاخلاق والدين والعربية الاصيلة ، والروحية في (معنويته) العميقة ..

اول ما يسترعي انتباه القارىء في هذا التصنيف ، قبل الدخول في مناقشة التفاصيل ، هو ان نازك تلجأ الى التعميم المطلق ، سواء في حكمها على الادب العربي القديم ، او في حكمها على ادب (الغزو) .. المعاصر .

فهي تعزو للتراث كل الفضائل الاخلاقية والدينية ، وترفعها كلها ، بالمقابل ، عن الانتاج الجديد ..

وهذا ما لا يستطيع حتى التراثيون ان يوافقوها عليه . اذ ان الادب العربي القديم حافل بمختلف وجهات النظر والمواقف الفنية . ان فيه ادبا (طبيعيا) ـ ان شئنا استعمال هذا المصطلح ـ في اشعار الجاهليين من امرىء القيس الى الذبياني . ويكفي ان نتذكر قصيدة (المتجردة) حتى نعلم الى اي حد كان اقدم الشعراء العرب لا يتحرجون من وصف الجمال ، والتشبب به ، والتغزل الحسي بمفاتنه .

ثم انه لم يكن يخلو اي عصر من عصور صدر الاسلام ، وحضارة الاسلام ، من شعراء لا يضعون الاخلاق جانبا في قصائدهم فحسب ، بل يتفننون في معالجة الادب الجنسي المكشوف ، بالفاظه ومواقفه . ولست احسب ان السيدة نازك تتناسى هؤلاء الشعراء ، الذين لم يكونوا ملعونين ، كحال بعض شعراء الغرب ، امثال رامبو وبودلير ، بل كانوا شعراء مجتمع وبلاط ووجاهة .

هذا عدا عن الكتب النثرية الكثيرة ، التي الفت بصدد الاثارة والتشويق الجنسي ، والتي ما زال بعض العامة يتداولونها سرا حتى ايامنا هذه ..

وعدا عن كتب المراجع الادبية القيمة كالاغاني والعقد الفريد ، كما ذكر سهيل ادريس .

واما الادب الغربي ، فان نازك نفسها ، قد ذكرت ان هناك من النقاد والكتاب من دعوا الى ربط الادب بالاخلاق . واذا توسعنا في هذا المجال وجدنا ان في الغرب مدارس ادبية ، تتراوح بين اعنف اشكال المحافظة و .. (الخلقية) ، وبين ما يقابلها من طبيعية وانطلاق ..

ويكفي ان نذكر الكاتبة انه حتى بين الوجوديين ، هنالك فلاسفة وكتاب دينيون متطرفون ، امثال (غابرييل مارسيل) في فرنسا ، و (ياسبرز) في المانيا ..

غير انه حتى الكتاب (الاخلاقيون) لا يتحرجون عن معالجة الجنس ، وقضاياه « اللااخلاقية » .. لانهم لا يسمحون لانفسهم ان يهملوا نصف الواقع والحياة ، وان يتجاهلوه . بل من خلال تجارب الانحراف والشر والرذيلة ، كثيرا ما يكشفون عن اعمق نزعات الانسان نحو السمو الحقيقي ، لا المزيف الخارجي ، لا الاخلاق البورجوازية المنافقة ، لا الاقنعة المزورة لعقد النقص والكبت ..

وتتجنى نازك على (بلزاك) لانه في روايته التي ذكرتها ، وفي روايات اخرى ربما لم تقرأها نازك ، كان لا يتحرج عن وصف العالم الادنى ، الطبقة المظلمة ، من المجتمع والنفس ، بؤر الضلال والضياع ..

ولكن لولا (بلزاك) ، وكتاب واقعيون اخرون ، لما قامت الدعوات الاشتراكية في الغرب ، لما تعرفت الانسانية الى الجوانب المظلمة من حياة المجتمعات البورجوازية . ان (بلزاك) و (توماس هاردي) و (ديستويفسكي)، هم الذين الفوا طلائع الثورات الاشتراكية والشعبية منذ اواخر القرن الماضي .

ولست ادري لماذا ميزت نازك ، بين (بلزاك) و (اميل زولا) ، وهما متقاربان وينتميان الى نزعة واحدة . فاتهمت الاول بانه يدعو الى البربرية . ووصفت الثاني بانه يدعو لسمو الاخلاق .. !

واحب ان اذكر الكاتبة ببعض (قراءاتها الغربية) ، فان المذهب الطبيعي ، الذي شاع في اواخر القرن الماضي ، في فرنسا ، ينطلق من مبدأ اول ، وهو ان على الكاتب ان يصور الانسان والمجتمع والطبيعة ، كما هي في الواقع ، وان يتجرد بقدر الامكان ، عن اهوائه ووجهات نظره الخاصة ، اي ان يسلك سلوك العالم في بحثه عن الحقيقة . واصحاب هذا المذهب الى ما يسمى اليوم بالواقعية ، والواقعية الاشتراكية . ونبغ بل لا بد من الكشف عن العالم كما هو ، عن الانسان ، في سلوكه اليومي ، الظاهر والخافي . وبعد ذلك ، يترك للقارىء ان يحكم على ما يرى من خلال الكتاب ، ان يقبل او يرفض ، ان يدين او يبرىء . ولقد تطور هذا المذهب الى ما يسمى اليوم بالواقعية ، والواقعية الاشتراكية . ونبغ فيه كتاب عالميون كبار ، افادوا قضايا التقدم والتحرر الانساني ، والفوا مؤونة رائعة للتحليل الاجتماعي العلمي ، وربما تعرف هذا الكاتبة ، او لا تعرفه !

فلا يصح اذن ان تلقى الاحكام جزافا ، ودون سابق اطلاع حقيقي وشامل على مثل هذه المدارس والنزعات الايجابية . وان يكتفى بنتف واقوال ، وملخصات مشوهة ، لتكوين فكرة عن خضم من الافكار والمواقف ، التي لا اعتقد ان الكاتبة قد كلفت نفسها مؤونة دراستها في متونها

الاصلية ..

وتقفز نازك مباشرة من هذا التقرير السريع ، من ادانة ادب الغرب كله بالبربرية والوحشية ، الى ادانة الكتاب العرب المعاصرين . فتأخذ على هؤلاء انهم يعالجون في قصصهم « اشنع النماذج في الانسانية والخلق . » كأن يتطاول الولد على ابيه او استاذه ، أو ان بطل القصة يسير ويبصق في الشارع..وهنا ايضا تقع الكاتبة في التعميم السريع والمغلوط ، ولا تحاول التعيين والتخصص والتدليل المباشر .

انا مع الكاتبة في ان هناك (بعض) الناشئة ، ممن استهوتهم الفاظ وعبارات معينة ، ونماذج سلوكية عابثة سطحية ، وانطلقوا يحشون بها كتاباتهم المراهقة الضحلة .. ان هؤلاء يقلدون ولا شك . ولكنهم قد يقلدون بعض الادباء العرب ، او الادباء الغربيين . والتقليد ظاهري مشوه .

ولكن المسؤولية لا تقع على عاتق الكتاب الغربيين أو العرب، الذين تقلدهم هذه الناشئة من المراهقين ، المسعورين بالعنف السطحي،والغضب المفتعل . وربما وقعت المسؤولية على المجلات او الصحف التي تنشر لهؤلاء . وربما وقعت مسؤولية اكبر على النقاد ، الذين عليهم أن يميزوا بين الاصيل والدخيل ، بين التجربة الحقيقية ، واصطناع التجربة ..

وربما كان السبب ايضا في خطأ التوجيه الثقافي والتعليمي ، لهؤلاء الناشئة . فبدلا من ان تقدم لهم المصادر الفكرية والادبية الاصيلة، فانهم يقعون على بعض النتاج الرخيص ، المشحون بهالة من الدعاية الصحفية والسينمائية ، المثيرة والمشوقة ..

وانا مع الكاتبة ايضا عندما تهاجم الادب المكشوف ، المرتبط بغاية الاثارة . ولكنني ارفض ان تعمم الكاتبة حكمها في هذا الموضوع ، فتدين ادب التجربة والمعاناة الواقعية . ان الجنس لن يكون بعبعا الا عندما نخفيه . ولكن عندما يدرسه العلم ، ويكشفه الادب ، فانه يتحول الى دافع حيوي واقعي ، كبقية دوافع الحياة الاخرى كالجوع والعطش.وفي هذه الحال نستطيع أن نعالجه بهدوء ، ونكشف عن اقنعته المختلفة ، وعقده المرضية .. وخاصة في مجتمعنا العربي ..

ان ازدواجية الشخصية التقليدية في مجتمعنا ، وان كثرة من النماذج السلوكية العنفية ، في مختلف مظاهر التطرف ، في الاخلاق والسياسة والاجتماع .. والحياة اليومية .. والعلاقات العائلية وغيرها، انما توجهها غالبا عقد الكبت ، والشهوات الدفينة . واذا كان ادبنا المعاصر ، ادب ثورة وتغيير ، فلا بد له ان يثور على جذور المركبات السلوكية ، المقنعة بالنفاق والرزانة ، وان يكشف في كل انسان عن (قبوه) السري ، لكي نعرض اعماق البشر للشمس والضياء ، ونطهرها من العفن والتدليس والكذب على النفس والمثل العليا ، على الله والاديان ..

فلا تخش الكاتبة الفاضلة من ان يتحلل هذا النوع من الاخلاق الخارجية المزيفة . فنحن لم نرث هذه الاخلاق عن عصور الحضارة والرفعة ، ولكنها اخلاق المجتمع المتخلف ، المحتل ، المجمد ، والمستنقع على هامش الحياة والابداع .. الف سنةعلى الاقل ..اخلاقالبورجوازية والاقطاعية ، اخلاق السيادة المستغلة والعبودية الخانعة ، اخلاق ذل الصغير امام الكبير ، واذلال الكبير للصغير .. ليست هي اخلاق عمر ولا علي ، ليست هي عبقرية ابي العلاء ولا المتنبي .. نحن نحيا عصر انتقال ، تمرد وثورة ، فشل وارتداد ومعاودة للثورة . ولذلك فان كل شيء في المجتمع الفاسد القديم ، الذي تسلمناه ، عن عصور الانحطاط والخمود ، معرض اليوم للاهتزاز والانهيار ، في سبيل بناء جديد اسلم واصح .

فلسنا مستعدين للتخلي عن ثورتنا الشاملة ، من أجل بعض اعراض انحراف وشذوذ . ان الخطأ والانحراف ، صفة للحياة والنمو.. ولا شيء ينمي اجنحتنا حقا كالطيران وقت العاصفة ..

ثم ان القومية العربية يا سيدتي ليست تكرارا للماضي ، واذا كانت في احد معانيها تمثل البعث ، فانها لن تبعث الا الينابيع ، لا المستنقعات ، واليد الصناع المبدعة ، لا الاشياء المصنوعة المتحفية ..

وبدلا من أن ننعي على ادبنا المعاصر احتفاله بالحس ، والانحراف به احيانا ، فان من الواجب على المثقفين ان يسألوا عن السبب ، لا ان يدعوا البوليس الى المنع والرقابة .. ولعلك تتفقين معي ان السبب ، هو من نفس العارض المرضي . أي ان اخلاق الكبت والتحريم هي التي تجعل الشباب يسترقون ادب الجنس ، وينحرف بعضهم نحو الشذوذ والضياع ..

لقد ذهب العصر الذي كنا فيه نسلك سلوك التواطؤ مع انفسنا : نتواطأ مع انفسنا لنخفي عيوب انفسنا ، ونتمسح بالمثل والاديان ، ونعزو لنفسنا كل المناعة والرفعة ..

نحن لسنا فرسانا من خشب في صراع مع طواحين الهواء ..

فالثورة الحقيقية قبل ان توجه الى الاخر ، هي في الثورة على النفس ، ضد فكر التواطؤ وسلوك التواطؤ وادب التواطؤ ..

والاخلاق الحقيقية تنبعث اولا من موقف الجرأة بان نقول : لا ، للزيف والنفاق الجماعي ، وان نقول نعم ، للحقيقة البسيطة ..

وحقيقتنا اليوم هي الثورة .. والخلق من جديد !

اما قصة الادب مع الدين ، فان نازك تريد ان تعلن انها متدينة من الطراز الاول ، وهذا شأنها .. ولها ان تبشر بافكارها الدينية من خلال ادبها ، وهذا شأنها ايضا ، كما هو شأن اي كاتب غربي مؤمن او علماني، او ملحد ..

وهي تقول ان الدين الاسلامي هو والحياة شيء واحد . واما الدين المسيحي فلا .. ولو انك اطلعت على مذاهب المسيحية وطرقها ، لرأيت ان هناك من يمزج الدين بكل نفس من انفاس الانسان المسيحي . ولعلك تذكرين ان الكنيسة كانت تتدخل في جميع شئون الحياة الدنيوية للمسيحيين ..

وهناك ادباء متدينون لا يفصلون الادب اطلاقا عن عقيدتهم . حتى ان التيار الديني في الفلسفة الوجودية ، وعلى رأسه (كيركيجارد) ، يعتبر ان الوجود المشروع الوحيد ، هو ان يوجد الانسان مسيحيا ..

ثم ان تدليلك على ان المسيحية في الغرب بعيدة عن الحياة،بسبب ايمانها بالخطيئة الاولى ، ودعوتها الى الرهبنة ، وان الاسلام ممتزج بالحياة لانه يعتبر الزواج سنة .. شيء لا علاقة له بالادب ، حتى ان صح هذا ، فان الغرب لم يستطع ان يتخلص من تأثير الكنيسة وتدخلها في جميع شئون حياته وفكره .. الا بعد عصور من الثورات الدموية ، والثورات الفكرية والعلمية والصناعية . بينما لم يكن في اظلم العهود تعضبا اي سلطان لكهنوت اسلامي على المجتمع . ومع ذلك فقد عانى كثير من المفكرين والادباء من استغلال الدين ضد حرية الفكر ..

ولست ادري ان كانت الشاعرة نازك الملائكة ، صاحبة ديوان(عاشقة الليل) تدعو الى استعداء الدين على بعض الادباء ، حتىولو علىالمتحللين منهم ، والناشئة الكفرة .. !

والواقع ان تقاليد الالحاد والعلمانية لم تأتنا عن طريق احتضاننا للثقافة الغربية دونما مناقشة ــ كما تقول نازك ــ ، ففضلا عن ان قلة نادرة من مثقفي العرب هم الذين اتيح لهم ان (يحتضنوا) جزءا من خضم الثقافة الغربية ، فان تجارب الشك وما يشبهها قديمة ، لدىبعض اعلام الثقافة العربية السابقة ، ونازك تعرف هذا ايضا .

واما دفاعها عن الاسلام وثقافته وشمُوله ، فهو صحيح ، شرط الا يكون هذا التأكيد والالحاح اسلوبا لنفي قيمة كل ثقافة اخرى ، وكل حضارة .. فلقد كان الاسلام الاصيل اوسع صدرا ، من كثير ممَن ينطقون باسمه اليوم ، حتى استطاع ان يستوعب تفاعل الثقافات العالمية على ارضه ، وان ينقل امانة الحضارة الى الغرب نفسه ..

***

ومن خلال هذا الموقف التعصبي نفسه ، تنتقل نازك الى مناقشة بعض المستحدثات في اللغة العربية . ومن خلال هجومها على الترجمة الركيكة ، وهي محقة في هذا كل الحق ، تحاول ان تعمم الخطأ ايضا ، فترمي مختلف مظاهر التجديد فيالاسلوب ، بانها تقليد للغة المترجمة.. وهذا غير صحيح ايضا !

ثم تتعرض للهجوم على استخدام بعض المصطلحات الغربية في لغتنا كما هي ، وهي ضرورية وشائعة في اكثر اللغات الحية ، ما دامت لا تجد لها مقابلا كاملا عند الترجمة. اما ان تقديم الحال احيانا او الفعل ، فبالرغم من انه محذور لغويا ، ولكنه قد يفيد احيانا لا في النثر الحكومي ـ كما اوردت الكاتبة ـ ولكن في تنويع الاساليب الفنية في الشعر والقصة ، وذلك من اجل التأكيد على لفظة الحال نفسها ، او الجار والمجرور ..

ثم اني اعجب للكاتبة عندما تريدنا الا نستعمل مثل هذه العبارات: السوق السوداء ، الحرب الباردة ، مؤتمر القمة .. لماذا ، تقول الكاتبة، لانها وسائل من البلاغة اللاتينية .. !!

وتصل الكاتبة اخيرا الى مناهضة ما تسميه (العنوية الغربية) ، وتأخذ مثالا عليها جان بول سارتر .. المسكين ! فاذا سارتر يصبح يهوديا عند الكاتبة ، وهذا جهل مباشر ..

ثم تقع في جهل اخر ، او سوء فهم ، عندما تحلل كتابه الغثيان ، فتقول «سارتر ناشر فلسفة الغثيان ، ومضمونها ان المجتمع بغيض ، وان وجود الناس حولنا هو الجحيم الخ .. » ولو قرأت الكاتبة اي نقد لهذا الكتاب لعلمت ان سارتر ، يتحدث عن تجربة انتزاع الانسان من اطار مجتمع معين ، هو المجتمع البورجوازي الفرنسي ، ثم محاولة البحث عن ينابيع مبادهته وحريته الخاصة ، واعادة البراءة الى فكره ونظرته الى الامور ، كيما يراها صافية في ذاتها دون اية هالة اجتماعية خارجية ..

ولقد انطلق سارتر من تجربة الغثيان هذه كيما يبشر باعظم فلسفة التزام في القرن العشرين ، فكتب الافا من الصفحات عن فضح الكذب والتواطؤ الاجتماعي والسياسي، والالتزام بحرية الانسان فردا وشعوبا..

ولعل المثقف العربي اصبح يعرف عن سارتر اليوم ، ما يجعله يسخر من التهم التي توجه اليه جهلا وتعصبا . ومن الغريب ان تنساق (نازك الملائكة) مع هذا التيار ، دون ان تعتمد على قراءة واعية شاملة لاثار سارتر ، التي نقل اكثرها اليوم الى العربية ..

وتمضي الكاتبة بعد ذلك ، لتفند المفهوم المطلق للحرية المتعارض مع مفهوم الفضيلة وكذلك تنعي على الادب العربي المعاصر ميله الى التشاؤم وترديد معزوفة القلق . ثم تعرض للفوارق (الاساسية) بيننا وبين الغرب ، في اننا شعب روحي ، وشعب له قضايا ثورية كبرى ، بينما الغرب مادي متحلل ملحد ، يعاني من الفراغ ، ومن القلق على ثروته التي حصل عليها عن طريق الاستعمار .. وهكذا !

وكل ذلك يتابع سلسلة التعميمات والفرضيات السطحية ، دون تمحيص او تخصيص ، ودون تدليل علمي واف .

واخيرا لا شك ان الموقف (الجديد) الذي التزمته الشاعرة نازك الملائكة ، والذي عبرت عنه خلال محاضرتها هذه ، انما هو جزء من موقف فئة لا بأس بها ، اليوم ، من بين المثقفين العرب ، والتي صدمتها خيبات كثيرة سياسية واجتماعية ، واغضبتها بعض مظاهر التحلل والانحراف التي ترافق عمليات التحويل الجذرية التي يتعرض لها كياننا الانساني كله.

واذا كان هناك ما يخفف من الطابع التعصبي لهذه الافكار والمواقف، عند نازك ، فهو رغبتها المخلصة ولا شك ، في ترسيخ اسس الحياة الجديدة للمجتمع العربي . ولكنها اخطأت الوسيلة ، وان عرفت الهدف. فالوسيلة ليست هي المنع والقمع ، والتعلق باوهام القوالب السابقة ، ولا في التأكيد على امجاد الماضي .. بل هي في الدفع اعمق فاعمق، لكي تعم الثورة الاصيلة ، وتتناول بالمقاييس الثورية ليس الماضي فقط، وانما الحاضر ، ليس السلف ، وانما النقل عن الاخرين ..

ان الفشل الموقت لبعض مظاهر الثورة السياسية ، لا يعني التخلي نهائيا عن جوهر الثورة والارتداد الى حصون الماضي وحده. وان انحراف بعض الانتاج الادبي نحو التبذل والتقليد الاعمى ، لا يعني الغاء محاولة التأسيس الاعمق للتجديد والتفاعل . ذلك ما ينبهنا اخيرا الى بعض الازمات الفكرية التي تنمو في مناخات الفشل ، والتي علينا ان نواجهها مباشرة ، باوسع واشمل مما فعلنا حتى الان .

مطاع صفدي

صدر حديثا

للكاتب الانكليزي الشهير

كولن ويلسون

ضياع في سوهو

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

رواية رائعة صور فيها مؤلف « اللامنتمي » تجربة نابضة بالحياة قام بها شاب بين غرباء الاطوار والفنانين في احد احياء لندن الشهيرة ، بلهجة جديدة هي سر ابداع الكاتب الذي تترجم آثاره الى جميع لغات العالم .

وقد حصلت « دار الاداب » على حقوق ترجمة هذه الاثار الى اللغة العربية ، وستقدم بعد هذه الرواية عددا من كتبه الجديدة التي صدر بعضها ولم يصدر البعض الاخر باللغة الانكليزية .

الثمن ٤ ليرات لبنانية .

منشورات دار الآداب

القصائد

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٠ ـ

ببلاء ايوب الاسطورة ـ مع الفارق طبعا من حيث ان انتصار السيـاب في بقاء ذكراه او في ان دمه لن يطل .

والحقيقة ان هذا لم يكن ما لفتني الى القصيدة ، انمـــا الذي لفتني هو تفعيلاتها ، وقد نبه الشاعر فيها على انـــه يحاول استخدام « بحر عربي مهمل من زمان قديم » هو المديد يبقى فيه « الضرب » على « فاعلاتن » في الاحوال كافة . وفي هذا القول ما يؤخذ عليه لان المسألة في جوهرها ليست ارادة على اكتشاف قالب من بحر عربـي قديم ، او على الاقل ليست بعثا لمقاييس مهجورة ، فـــان التجربة او معاناتها او استدعاءات صورها هي التي تفرض القالب . بمعنى ان الوزن جزء من التلقائية التي تكون جوهر عملية الابداع قبل لحظات البزوغ وليس هو حيث التنظيم الذي يخضع للمنطق والعقل .

انا شخصيا لم ارتح لايقاعات القصيدة ، بل لم ارتح الا حيـــث جعل « فاعلاتن » وحدها هي وحدة مقطع كامل يبدأ بقوله « ثم مرت » والا حيث استخدم البحر كما استخدمه القدماء بعروض ضرب صحيحي.

ظل ايوب المدمى يمنى
نفسه والموت يستل نبضه

وفي مثل هذا الموضع ضمن بيت الشنفري المشهور « ان بالشعب الذي دون سلع » ليكون بيت القصيد !

وفي الرأي ان الشاعر خلط بيـــن المديـــد والرمل والمتدارك ، واستخدامه وحدة المتدارك بصفة خاصة « فاعلن » يبدو في مثل قوله :

والسماء الحزينة تزرع ارضه

جاعلا الضرب مخبونا مرفلا ، واحيانا لا يستخدم الا الترفيـــل بلا خبن فيقول :

واتى الغابة المستباحة والصبح طفل

علما بأن الضرب المجنون المرفل لا يكـــون الا حيث يكون البحـــر مجزوءا ، ولكن الشاعر شاء ان يستغل كل رخصة خليلية حتى ولو كان ذلك على حساب الايقاع !

اكذوبة وكلمات

عندما يتصدى شاعر للكتابة يكون مسلحا عادة بكل ادوات التعبير الاولية ، وهي اللغة ونحوها والعروض بقضاياه الخطيرة . وهو لو اخل بواحدة من هذه يبدو عمله ناقصا ، ودعنا مما كان يزعمه الرومانسيون عن عفوية الشعر ، فهو صناعة مادتها الالفاظ او على الاقـــل تلقائية تضرب في اللاوعي وتنظيم فكري مقصود .

واذ اقول هذا اذكر قصيدتين من قصائد الاداب اولاهما « اكذوبة السنابل الخضر » لعلي البطل من القاهرة والثانية « كلمات » لصباح الدين كريدي من اعزاز بسوريا .

على البطل لا يدقق في لغته حتى ليقول اكثر مـن مرة « والسبع بحار » مسخطا سيبويه في انه عرف المضاف مع ان القاعدة تقتضي ان يقول « سبع البحار » او « السبع البحار » اذا لـــم نحسب حساب التذكير والتانيث في العدد والمعدود . فاذا حسبنا حساب ذلك وجب عليه ان يقول « وسبعة البحار » او « والسبعة البحار » او « البحـــار السبعة » ثم « البحار السبع » على وجه ضعيف من الوجوه .

وصباح الدين كريدي بدوره يسخط الخليل كثيـــرا واللغويين قليلا ، ولنسمعه يقول :

كل ما نهواه في دنيانا ومص وانطفاء

وكذلك وهو يقول :

شاعري ماذا كتبت عن الرفاق الاشقياء

ثم وهو يقول .

وترانيل صلاة
واغاني غرام

وقد اضم الى هاتين القصيدتين قصيدتين اخريين وان كنت ارجح ان صاحبيهما اكثر قدرة على العطاء الشعري ، الاولى بعنوان « ابـي » لجسب الشيخ جعفر والثانية بعنوان « الحزن » لاحمد حسن ابـــو عرقوب . بل ان قصيدة حسب الشيخ تعتبر مـــن احسن قصائد اداب العدد الماضي ولا سيما في مناجاته لابيه ورصده صورا حلوة حلوة منها:

ابي .. الشتاء في ظلامه ورعده العظيم
ما هزنا وانت ملء بيتنا جيش من الشجاعه
سيوفه لمـاعه

ومنها ايضـا :

ابي ابي الوديع كالمياه في النهر

ومنها كذلك :

ابي اراك لحية من الشعاع
ومقلتين مثل كوكبين في اوائل السحر
وجبهة يسبح فيها قمر الضفاف .. يسبح المطر

غير انني كنت ارجو ان يربأ بنفسه عن ان يتورط فيمـــا يتورط فيه المتعجلون ، والا فليعد الى المقطع الاول والمقطع الرابع فسيرى نفسه يقول « اريد ان القط عن لحيتك الطلـــع اذ تفتح الزهر » ويقـــول « وامطرت سماء اوروبا دماء جليدا امطرت حجر » .

وبعد ، فيؤسفني ان اتوقف هنا معترفا باني قصرت فـي حق بقية الشعراء . انما عذري كثرة المادة الشعرية من ناحية الى حد يتعذر معه اي تحليل دقيق ، ومن ناحية اخرى اني اعرف ثلاثة من هؤلاء الشعراء يغفرون لي تقصيري وهم فرج صادق مكسيم وبدر توفيق ووفاء وجدي !

القاهـرة — احمد كمال زكي

سلسلة المسرحيات العالمية

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور
بقلم جان بـول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٢ ـ ماريانـا
تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكر مصطفى
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي
تأليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتـــور سهيل ادريس
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٤ ـ لكل حقيقته
تأليف لويجـي بيراندللو
ترجمة جـورج طرابيشي
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٥ ـ تمت اللعبة
تأليف جـان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد
الثمن ٢٠٠ ق. ل

منشورات دار الاداب ـ بـيروت